والحق سبحانه يقول:

﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (١) (٣٨) ﴾ [الرعد]

وتطلق كلمة «الأجل» مرة أخرى على لحظة النهاية وحدها ، مصداقاً لقول الحق سبحانه:

﴿ ..فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٢) (٣٤) ﴾ [الأعراف]

ولنعرف جميعاً أن كل أجل - وإن طال - فهو معدود ، وكل معدود قليل مهما بدا كثيراً ؛لذلك فلْنقُلْ أن كل معدود قليل، ما دُمْنَا قادرين على إحصائه.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ (٣) وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾

---

(١) الكتاب: له عدة معان، منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والرسالة، ومصدر كتب، ويسمى به ما كتب وسجل في صحف، ومصدر كاتب. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النمل] . وقال تعالى: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] أي: في حكمه وتقديره أو في القرآن الكريم في آيات المواريث. وقال تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ .. (٦٨) ﴾ [الأنفال] أي: ولولا قضاء من الله من قبل سجّله سبحانه عنده؛ فلا تغيير له، وهو إباحة الفداء. وقال تعالى: ﴿ .. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد] أي: موعد مكتوب مسجل عند الله. وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء] أي: فرضاً مسجلاً عنده سبحانه، كل صلاة في وقت وفي ميعاد محدد معين. [القاموس القويم: مادة (ك ت ب)] بتصرف.

(٢) تأخر واستأخر: ضد تقدم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] أي: لا تتأخرون ولا تطلبون التأخير ولا التأجيل، ولا تتقدمون لأنه محدد بوقت معلوم يستحيل تقديمه أو تأخيره. [القاموس القويم : مادة (أ خ ر)].

(٣) شقي شقاً وشقاءً وشقاوة: ساءت حالته المادية أو المعنوية، فهو شقيٌّ. واسم التفضيل: أشقى. قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا .. (١٠٦) ﴾ [المؤمنون] أي: حالة الشقاء والضلال وفساد النفوس. والشقي: المحروم من الخير. قال تعالى: ﴿ .. وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) ﴾ [مريم] ، أي: لم يسبق لي أن كنت محروماً من الخير حين أدعوك. [القاموس القويم: مادة (ش ق ي)].

وهنا جمع الحق سبحانه جماعة فى حكم واحد ، فقوله تعالى :

﴿ لا تكلَّمُ نفسٌ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يعني: لا تتكلم أى نفس[1] إلا بإذن الله ، وقد كانوا يتكلمون فى الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التى منحهم إياها الله سبحانه حين أخضع لهم جوارحهم.

وجعل الحق سبحانه الجوارح مؤتمرة بأمر الإنسان ؛ وشاء سبحانه أن يجعل بعضاً من خلقه نماذج لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح؛ فتجد الأخرس الذى لا يستطيع الكلام ؛ وتجد المشلول الذى لا يستطيع الحركة ؛ وتجد الأعمى الذى لا يبصر ، وغير ذلك..

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هى أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ؛ وليست مسالة ذاتية فيهم.

وقول الحق سبحانه:

﴿ يومَ يأتِ لا تكلَّمُ نفسٌ إلاَّ بإذْنِهِ .. (١٠٥) ﴾ [هود]

يبيِّن لنا سبحانه حقيقة تسخير الجوارح لطاعتنا فى الدنيا ، فهى ترضخ لإرادتنا ؛ لأنه سبحانه شاء أن يسخرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحد فينا يتكلم إلا فى إطار الإذن العام للإرادة أن تنفعل لها الجوارح.

وقد يسلب الله سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارح للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول فى آية أخرى:

﴿ لاَّ يتكلَّمونَ إلاَّ مَنْ أذنَ لهُ الرَّحْمنُ وقالَ صواباً (٣٨) ﴾ [النبأ]

---

(١) النفس: الروح وذات الشيء وحقيقته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ هو الَّذي خلقكُم مّن نفْسٍ واحدةٍ .. (١٨٩) ﴾ [الاعراف] هى نفس آدم عليه السلام، وقوله : ﴿ تعلمُ ما في نفْسي .. (١١٦) ﴾ [المائدة] أى: ما أستره فى ضميرى، وقوله : ﴿ وما أُبرِّئُ نفْسي .. (٥٣) ﴾ [يوسف] أى: ذاتى وقوله : ﴿ وإذْ قتلْتُم نفْساً فادَّارأْتُمْ فيها .. (٧٢) ﴾ [البقرة] أى: إنساناً والنفس لها حالات، فتكون أمّارة، وتكون لوّامة، وتكون مطمئنة وراضية، وترتفع درجتها لتكون مرضية قد رضى الله عنها وأرضاها، وقوله تعالى: ﴿ ويُحذِّرُكُمُ اللهُ نفْسهُ .. (٢٨) ﴾ [آل عمران] أى: غضبه [القاموس القويم ص ٢٧٨ جـ ٢]

ويقول الحق عز وجل فى آية أخرى:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) ﴾ [الصافات]

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات]

ويقول الحق سبحانه أيضاً:

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ [١] عَن نَّفْسِهَا .. (١١١) ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول سبحانه:

﴿ وَقِفُوهُمْ [٢] إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

وهكذا قد يُخيَّل للبعض أن هناك آيات تناقض بعضها ؛ فهناك آيات تسمح بالكلام ، وهناك آيات تنفى القدرة على الكلام.

وأقول: يجب أن نفهم أن الكلام الذى سيعجز الأشقياء عن نطقه يوم القيامة هو الكلام المجدى النافع [٣] ، وسيتكلم البعض كلام السفسطة الذى لا يفيد ، مثل لومهم بعضهم البعض ؛ وذكره لنا القرآن فى قوله سبحانه:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا [٤] مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت]

---

(١) جادل: خاصم بالحق، وبالباطل، واستعمل فى الباطل فى قوله تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٩) ﴾ [النساء] ، واستعمل فى الحق فى قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] ، وقد نهى الله حجاج بيته عن الجدال بكل أنواعه صيانة لعلاقة المحبة بينهم. قال تعالى: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. (١٩٧) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم: مادة (ج د ل)].

(٢) قفوهم: احبسوهم فى موقف الحساب. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

(٣) أى: أنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم، وإنما يتكلمون بالإقرار بذنوبهم، ولوم بعضهم بعضاً، وطرح بعضهم الذنوب على بعض، فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا، وهذا كما تقول للذى يخاطبك كثيراً، وخطابه فارغ عن الحجة: ما تكلمت بشىء، وما نطقت بشىء، فسمى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم. قاله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤١٧).

(٤) أضل فلان غيره: أوقعه فى الضلال. والضلال: النسيان والضياع. قال تعالى: ﴿ .. وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾ [يونس] أى: غاب عنهم ما عبدوه.وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (١٠٤) ﴾ [الكهف] أى: ضاع عملهم ولم يحقق الرجاء منه، أو لم يجدوا ثواباً يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (ض ل ل)] بتصرف.

وهذا كلام لا يشفع لصاحبه ولا يجدى.

إذن: فالممنوع هو الكلام المجدى المفيد ، أو أن مقامات القيامة متفاوتة؛ فوقت يتكلمون فيه ؛ ووقت يؤخذون فيه ، فينبهرون ولا يتكلمون، ويأمر الحق سبحانه الجوارح المنفعلة أن تتكلم وتشهد عليهم(١).

ويقسِّم الحق سبحانه أحوال الناس قسمين، كما فى قوله تعالى فى آخر الآية:

﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ(٢) وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود]

وجاء بالاسم المحدد لكل من القسمين: «شقى» و«سعيد» ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت ، فالشقاء ثابت لمن نُعت بالشقى ؛ والسعادة ثابتة لمن نُعت بالسعيد(٣).

ثم يبيِّن لنا الحق سبحانه منازل مَنْ شقُوا ، ومنازل مَنْ سُعدوا ؛ ولذلك يعدل عن استخدام الاسم إلى استخدام الفعل ، فيقول سبحانه:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ(٤) وَشَهِيقٌ (١٠٦) ﴾

---

(١) يقول الحق سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] وقد أورد السيوطى فى الدر المنثور (٦/١٦٥) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُرِّف الكافر بعمله فجحد وخاصم. فيقال: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك. فيقول: كذبوا. فيقال: أهلك وعشيرتك . فيقول: كذبوا. فيقال: احلفوا . فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، ثم يدخلهم النار» عزاه لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه.

(٢) شقى - من باب فرح - شقًا وشقاءً وشقاوة: ساءت حاله المادية أو المعنوية فهو شقى، واسم التفضيل: أشقى.. وسَعِدَ: كفرح وسَعُدَ [ككرم] يسعَد ويسعُد سَعْدًا وسُعُوداً وسعادة نال الخير: ﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود] [القاموس القويم:(١/٣٥٣)، (١/٣١٣) بتصرف مختصر.

(٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية :﴿ .. فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) ﴾ [هود] سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبى الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه، أو على شىء لم يفرغ منه؟ فقال: «بل على شىء قد فرغ وجرت به الأقلام يا عمر، ولكن كل مُيسَّر لما خُلق له» أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١١) وابن أبى عاصم فى السنة (١/٧٤) وأحمد فى مسنده (١/٦) قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٤) زفير: إخراج شديد للنفس من الصدر. وشهيق: رد النفس إلى الصدر. [كلمات القرآن للشيخ حسنين مخلوف].

والذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله ؛ يجمعهم الشقاء ؛ لكنهم يدخلون النار أفراداً وزُمَراً.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا [1] .. (٧١) ﴾ [الزمر]

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ [2] أُخْتَهَا.. (٣٨) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن الكافرين - في الوصف الثابت - أشقياء ، لكنهم لحظة دخول النار إنما يدخلونها أفراداً ؛ بل ويدخل معهم بعض من المسلمين العصاة، ويتلقى كل واحد منهم عقابه المناسب لما ارتكب من الذنوب والمعاصي ؛ ويعاني كل منهم من شقاء يتناسب مع آثامه ؛ وبذلك يجتمعون في الشقاء ويختلفون في نوع وكمية العذاب ؛ كلٌّ حسب ذنوبه، ولا يظلم ربك أحداً.

وجاء الحق سبحانه هنا بالفعل «شقوا» ليبيِّن لنا أنهم هم الذين اختاروا الشقاء ؛ وأتوا به لأنفسهم ؛ لأن الحق سبحانه خلق عباده وترك لكل منهم حق الاختيار ؛ وأنزل لهم المنهج ؛ ليصونوا أنفسهم ؛ وأعان - من اختار الإيمان - على الطاعة.

ثم يذكر الحق سبحانه في نفس الآية موقف مَنْ أدخلوا على أنفسهم الشقاء ، فيقول عنهم:

---

(١) الزمر: جمع زمرة، وهي الفوج والجماعة. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ..(٧١) ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ..(٧٣) ﴾ [الزمر]. [القاموس القويم: مادة (ز م ر)] بتصرف.

(٢) اللعنة: السخط والإبعاد عن الرحمة. فاللعن: السب والدعاء بالطرد من رحمة الله. [القاموس القويم. مادة : لعن].

﴿ .. فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن الذى يتنفس فى النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ويواصل الحق سبحانه وتعالى وَصْفَ ما يتلقاه أهل الشقاء فى النار ، فيقول سبحانه:

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ[1] لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وكلمة «الخلود» تفيد المكث طويلاً ؛ مكوثاً له ابتداء ولا نهاية له ؛ وإذا أبِّد فهو تأكيد للخلود.

والذين شقوا إنما يدخلون النار ؛ بدءاً من لحظة:

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود]

وهو عذاب لا نهاية له بالنسبة للكافرين.

وأما عذاب المسلم العاصى على ما ارتكب من آثام ؛ فبدايته من لحظة انتهاء الحساب إلى أن تنتهى فترة عذابه المناسبة لمعاصيه ؛ ويدخل الجنة من بعد ذلك [2].

---

(١) فعل يفعل فهو فاعل. وفاعل: اسم فاعل من فعل. وفعَّال: صيغة مبالغة من فعل، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود]. [القاموس القويم : مادة (ف ع ل)] بتصرف.

(٢) عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم فى الشفاعة فيجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل». أخرجه مسلم فى صحيحه حديث (١٨٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٥ ، ١١).

ولهذا قال الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وهكذا ينقص الحق سبحانه الخلود في النار بالنسبة لأنصاف المؤمنين، فالحق سبحانه ﴿ .. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ ولا يحكمه أى شىء.

وإياكم أن تظنوا أن قدر الله يحكمه ؛ فالقدر فعْلُه ، ولا أحد يسأل الله سبحانه عمَّا يفعل ، لأن ذات الله هى الفاعلة ؛ فإن شاء سبحانه أن ينقص خلود مسلم عاص فى النار ؛ فالنقص يكون فى النهاية ؛ وبذلك يتحقق أيضاً نقص خلوده فى الجنة ، لأنه لا يدخلها إلا بعد أن يستوفى عقابه.

وبهذا التصور ينتهى الإشكال الذى اختلف حوله مائة وخمسون عالماً ؛ فقد ظن بعضهم أن الحق سبحانه يغلق أبواب النار على من أدخلهم إياها ، ويستمر ذلك إلى ما لا نهاية ، وكذلك من دخل الجنة من البداية سيظل فيها أبداً ، ولن يُلحق الله أصحاب الكبائر بالجنة ، ومن قال بذلك الرأى إنما يُسوِّى بين من ارتكب الكبيرة وبين الكافر بالله ، وهذا أمر غير متصور ، وهو بعيد عن رحمة الله .

وإذا كان هذا البعض من العلماء قد استدل على رأيه بالآية الكريمة التى جاءت فى سورة الجن ، والتى يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

فنحن نقول: إن الحق سبحانه يربِّب لطفه للكافر حتى يؤمن ، وللعاصى حتى يتوب ، وهذا من رحمة الله سبحانه ، فتأبيد الخلود فى العذاب لم

يرد إلا فى آيتين [١]، وهذا دليل على عظيم رحمة الله وسعة عفوه سبحانه.

ولذلك قيل عن رسول الله ﷺ إنه رحمة الله للعالمين ؛ وكلمة «العالمين» جمع «عالَم» والعالَم هو ما سوى الله تعالى.

ولذلك هناك رحمة للكافر ؛ هى عطاء الله له فى الدنيا.

وهكذا نعلم أن الله سبحانه هو الذى يملك نواميس الكون ، ولم يتركها تفعل وحدها ، بل يزاول سبحانه سلطانه عليها ، وما دام القدر هو فعله سبحانه ؛ فهو يغيِّر فيه كما يشاء.

فهو سبحانه رب الزمان والمكان والحركة، ومادام هو رب كل شىء فإنه فعال لما يريد، وهنا تخضع أبدية الزمان لمراده ومشيئته.

وقول الحق سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

نفهم منه أن الجنة أو النار لا بد أن يوجد لهما ما يعلوهما ويظللهما ، ولا بد أن يوجدا فوق أرض ما.

وإذا قال قائل: إن الحق سبحانه قد ذكر فى القرآن أن السماء سوف تمور [٢] وتنفطر [٣].

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) ﴾ [الأحزاب] وكذلك فى سورة الجن: ﴿ .. وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٢٣) ﴾ [الجن].

(٢) مار الشىء يمور موراً: تحرك وذهب وجاء فى سرعة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) ﴾ [الطور] [القاموس القويم : مادة (مور)].

(٣) يتفطر الشىء وينفطر: يتشقق. قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) ﴾ [الانفطار] أى: انشقت يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. (٩٠) ﴾ [مريم] أى: يتشققن من هول كفرهم وادعائهم أن لله ولداً - كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) ﴾ [مريم] .[القاموس القويم: مادة (فطر)] بتصرف.

نقول رداً عليه: لا تأخذ آية فى القرآن إلا بضميمة [1] مثيلاتها.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ [2] .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يورث أرض الجنة لمن يشاء ؛ لأنه سبحانه هو القائل على لسان المؤمنين يوم القيامة:

﴿ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ [3] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤) ﴾ [الزمر]

أو لأن الإنسان له أغيار ، وما حوله له أغيار.

ومن العجيب أن الإنسان المخدوم بالمادة الجامدة ؛ وبالنبات النامي؛ وبالحيوان الذى يحس ويتحرك ؛ هذا الإنسان قد يكون أطول عمراً من بعض المخلوقات المسخَّرة لخدمته ؛ لكنه أقل عمراً من الشمس ومن القمر.

---

(١) الضميم: المضموم، أو المضموم إلى غيره. [المعجم الوسيط: مادة (ضمم)]. والمراد ضم الآيات المتماثلة وفهمها فهماً شاملاً.

(٢) بدّل الشيء: غيَّره. وبدل الكلام : غيره أو حرَّفه بحيث يؤدى معنى غير المراد منه. قال تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ .. (٥٩) ﴾ [البقرة] أى: غيروه بكلام آخر، أو حرفوه ليؤدى معنى آخر غير المراد منه. وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] أى: عمل الخير والحسن بعد عمل السوء. وقال تعالى: ﴿ .. وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) ﴾ [الإنسان] أى: جعلناهم بدلاً منهم، كقوله تعالى: ﴿ .. إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾ [إبراهيم] [القاموس القويم : مادة (بدل)].

(٣) بوّأه: أسكنه. وبوّاه فى الأرض: مكّن له فيها. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (٢٦) ﴾ [الحج] أى: هيأناه له ومكناه منه. وقال تعالى فى قصة يوسف ﷺ: ﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ..(٥٦) ﴾ [يوسف] أى: ينزل فى أى مكان يريده من أرض مصر، وهذا كناية عن اتساع جاهه. [القاموس القويم: مادة (ب و أ)] بتصرف.

لكن الحق سبحانه هنا يصور عمر الإنسان فى الآخرة ؛ فكأنه سبحانه يعطى الأمد على أطول ما عرفنا من الأعمار ؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ .. (١٠٧) ﴾ [هود]

وإذا علَّق الله سبحانه شيئاً على شىء ، فلا بد أن يوجد هذا التعليق.

والحق سبحانه يتكلم عن أهل النار من الكفار ، فيقول تعالى:

﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (١) .. (٤٠) ﴾ [الأعراف]

فهل سيلج الجمل فى سَمِّ الخِياط ؟ إن ذلك محال.

ولذلك أقول : فلنأخذ التعليقات فى نطاق أنه سبحانه:

﴿ .. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

وقد جاء فى الكتاب قول سيدنا عيسى عليه السلام:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

فكان مقتضى السياق أن يقول سبحانه: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

وهذه نظرة سطحية لمدلولات القرآن ، بعقول البشر ، أما ببلاغة

---

(١) السَّم - مثلثة السين - : الثقب الضيق، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف] أى: ثقب الإبرة. [القاموس القويم : مادة (س م م)].

الحق سبحانه فيكون الأمر مخالفاً ، فأمر التعذيب أو الغفران موكول لله سبحانه بيده وحده ، وليس لأحد أن يسأله لِمَ فعل هذا ؟ ولِمَ ترك هذا ؟

لذلك كان هذا هو معنى العزة ؛ ولذلك كان سبحانه عزيزاً ، وهو سبحانه أيضاً حكيم فى أى أمر يحكم فيه سواء أكان بالتعذيب أو المغفرة.

لذلك جاء سبحانه بالخاتمة التى تثبت للحق سبحانه التعذيب أو المغفرة.

ففى تعذيب الكافرين قال سبحانه:﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾.

وفى الكلام عن الطائعين الذين أدخلوا الجنة قال سبحانه:

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[1] (١٠٨) ﴾

فالحق سبحانه يعطى المؤمنين ما شاء ، ويؤكد خلودهم فى الجنة ، وعطاؤه لهم لا مقطوع ولا ممنوع.

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ[2] مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ[3] (١٠٩) ﴾

(١) جذ الشيء، يجذه جذاً: قطعه أو كسره ، أو فتته. والجذاذ: القطع المكسرة المفتتة والحطام. قال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ .. (٥٨) ﴾ [الأنبياء] والمجذوذ: المقطوع. قال تعالى: ﴿ .. عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [هود] أى: أنه عطاء دائم غير مقطوع. [القاموس القويم: مادة (جذذ)].

(٢) المرية – بكسر الميم، وبضمها – : الجدل والشك. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (١٧) ﴾ [هود] وقرىء مرية – بضم الميم. [القاموس القويم : مادة (م ر ى)].

(٣) النقص: مصدر نقصَ. قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]. ومنقوص: اسم مفعول منه. قال تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود] أى: كاملاً ، لا ننقص منه شيئاً. [القاموس القويم: مادة (نقص)].

فهل كان الرسول ﷺ فى مرية ؟

هل كان الرسول ﷺ فى شك؟

لا ، ولكنه قول الآمر الأعلى سبحانه للأدنى ، ورسول الله ﷺ فى صدد هذا الأمر ؛ وبذلك ينصرف أمر الحق سبحانه إلى الدوام.

مثلما قال الحق سبحانه للنبى ﷺ :

﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ .. (٧٨) ﴾ [الإسراء]

وكان الرسول ﷺ يقيم الصلاة قبلها ، ولكن قول الحق سبحانه هنا إنما يمثل بداية التشريع.

ومثل هذا أيضاً قول الحق سبحانه فى خطاب النبى ﷺ:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١) ﴾ [الأحزاب]

فهل كان رسول الله ﷺ لا يتقى الله ؟

نقول: لا ، إنما هو لإدامة التقوى ، فإنه إذا أمر الأعلى الأدنى بأمر هو بصدد فعله ، انصرف هذا الأمر إلى الدوام، واتباع أمته للتقوى والإعراض عن النفاق والكفر، وهو خطاب للرسول وأمته، فللرسول الدوام والترقى والحصانة، ولأمته الاتباع لمنهج الله.

ومثل هذا قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٥٣) ﴾ [البقرة]

وهو سبحانه يناديهم بالإيمان ؛ لأنهم اعتقدوا اعتقاد الألوهية الواحدة ، ومن يسمع منهم هذا الخطاب عليه أن يداوم على الإيمان.

وما دام قد آمن بالإله الواحد قبل الخطاب ، فقد استحق أن ينال التكريم من الحق سبحانه بأن يخاطبه ويصفه بأنه من المؤمنين، فإذا نُودِى عليهم بهذه الصفة فهى علامة السمو المقبول.

وإذا طُلبت الصفة ممن توجد الصفة فيه ، فاعلم أنه سبحانه يطلب دوام الصفة فيه واستمرارها، وفى الاستمرارية ارتقاء.

وقول الحق سبحانه هنا:

﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ ..(١٠٩)﴾ [هود]

نجد أن التحقيق لا يثبت لهم عبادة[1] ؛ لأن معنى العبادة ائتمار عابد بأمر معبود. وهؤلاء إنما يعبدون الأصنام ، وليس للأصنام منهج يسيرُ عليه من آمنوا بها.

ولكن الحق سبحانه أثبت لهم هنا أنهم عبدوا الأصنام ، وهم قد قالوا من قبل:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ[2] .. (٣)﴾ [الزمر]

---

(١) عَبَدَ الله يعبده، عبادة وعُبودة: أطاعه فهو عابد اسم فاعل. وعبَّده بالتضعيف: سخَّره وأذلَّه، يقول الحق سبحانه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾ [الشعراء] والعبد بالنسبة للناس الرقيق المملوك، ويجمع على جموع منها: عباد، وعبيد وعَبَد ـ وعُبُد، والعبد بالنسبة لله: الإنسان الحر أو الرقيق، فكلاهما مملوك لله خاضع لحكمه وإرادته، وعُباد الأصنام هم عباد لأفكار هي تخريف وتحريف عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وكل عابد لفكرة منحرفة، فهو منحرف عن الحقيقة [القاموس القويم ١/ ٣ ، ٤ ـ بتصرف].

(٢) الزلفى: القرب ، والمنزلة، والدرجة. قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ .. (٣٧)﴾ [سبأ] أى: قربا، مفعول مطلق مرادف، أو تقربكم درجة ومنزلة قريبة منا. [القاموس القويم: مادة (ز ل ف)].

وهو إيمان فقد حجية التعقل الإيماني ، أي: أن تستقبل أنت بذاتك القضية الإيمانية وتناقشها لتدخل عليها باقتناع ذاتك .

وهم قد دخلوا إلى الإيمان بعبادة الأصنام باقتناع الغير ، وهم الآباء ، فإيمانهم إيمان تقليد ، وفي التقليد جفاف الفطرة السليمة وهو لا ينفع.

ونحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد جعل النِّسَب في الكون إما ليثبت نسبة إيجابية ، أو نسبة سلبية [1].

﴿ ما يَعْبُدُونَ .. (١٠٩) ﴾ [هود]

أي: على ما قالوا إنه عبادة ، ولكنه ليس عبادة ، لأن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، وليس للأصنام أوامر أو نواهٍ ، وعبادتهم هي عبادة تقليدية للآباء ؛ ولذلك قالوا:

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا [2] عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. (١٧٠) ﴾ [البقرة]

ولذلك يقرر الحق سبحانه هنا جزاءهم ، فيقول تعالى:

﴿ .. وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ [3] نَصِيبَهُمْ [4] غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾ [هود]

---

(١) فالكون فيه ألفاظ مفردة نعرف معانيها مثل: السماء، والأرض. ونفهم تصور الشيء. أما عندما نذكر لهذا الشيء صفة فهذا معناه النسبة، مثل قولنا: الأرض كروية. [مستنبط من كلام فضيلة الشيخ].

(٢) ألفى الشيء: وجده. قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) ﴾ [الصافات]. وقال تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] أي: وجداه. [القاموس القويم: مادة (ل ف ى)].

(٣) وفَّى إليه حقَّه: أوصله إليه كاملاً. ويتعدى لمفعولين فيقال: وفَّاه حقَّه. واسم الفاعل مُوَفٍّ: اسم منقوص. [القاموس القويم: ٢/٣٤٧].

(٤) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٢٣):
«فيه ثلاثة أقوال:
أحدها: نصيبهم من الرزق. قاله أبو العالية.
الثاني: نصيبهم من العذاب. قاله ابن زيد.
الثالث: ما وُعدوا به من خير أو شر. قاله ابن عباس».

أى: سنعطيهم جزاءهم كاملاً ؛ لأنهم يفسدون فى الكون ، رغم أن الحق سبحانه قد جعل لكل منهم حق الاختيار فى أن يفعل الشىء أو لا يفعله ، وإن لم تنضبط حركة الاختيار ، فالتوازن الاجتماعى يصير إلى اختلال.

وما دام للإنسان حق الاختيار ؛ فقد أنزل الحق سبحانه له المنهج الذى يضم التكاليف الإيمانية.

وهم حين قلدوا الآباء قد ساروا فى طريق إفساد الكون ؛ لذلك يُوفِّيهم الحق سبحانه نصيبهم من العذاب .

والمفهوم من كلمة «النصيب [1]» أنها للرزق ، ويذكرها الحق سبحانه هنا لتقرير نصيب من العذاب ، وفى هذا تهكم عليهم ، وسخرية منهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ [2] مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ [3] ﴿١١٠﴾﴾

---

(١) النصيب: القسم والحصة من الشىء. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا .. ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة] أى: لهم حظ وقسم وحصة هى حق لهم من كسبهم. [القاموس القويم: مادة (ن ص ب)].

(٢) سبق، يسبق سبقاً: تقدم، فهو لازم. وسبقه: تقدمه، فهو متعد. واسم الفاعل: سابق. واسم المفعول: مسبوق. قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ .. ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال] أى: تقدم وثبت فيه الحكم من قبل، وهو اللوح المحفوظ. [القاموس القويم ١/٣٠١]. والكلمة: قضاء الله وحكمه السابق فى اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ .. ﴿١١٠﴾﴾ [هود] أى: قضاؤه بتأجيل الحكم بين الناس إلى يوم القيامة. [القاموس القويم: مادة (س ب ق)، (ك ل م)] بتصرف.

(٣) الريب: الشك. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. ﴿٢﴾﴾ [البقرة] ورابه الأمر، يريبه ريباً وريبة: شك فيه. والريب: حادث الدهر المفاجىء. وريب المنون: الموت. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور] أى: حادث الموت. وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ .. ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة] أى: مصدر شك ونفاق. وأرابه: أوصله إلى الشك وأدخل الشك فى نفسه. واسم الفاعل: مريب. قال تعالى: ﴿.. وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود] على سبيل التوكيد أى: فى شك موصل إلى شك. وأراب الرجل، فهو مريب: صار موضع ريبة وشك لا يطمئن إليه الناس. قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق] [القاموس القويم : مادة (ر ى ب)].

وسورة هود هى السورة الوحيدة فى القرآن التى جاء فيها ذكر رسول واحد مرتين ، فقد ذكر الحق سبحانه أنه أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون ، وأن يريه الآيات ، ولم يزد [1]، ثم انتقل من ذلك الإبلاغ فقال سبحانه:

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود]

أى: أنه أعقب أولية البلاغ بالختام الذى انتهى إليه فرعون يوم القيامة ، فيُورِد قومه النار.

ثم يأتى الحق سبحانه هنا إلى موسى عليه السلام بعد ابتداء رسالته ؛ ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن ذِكْر موسى عليه السلام فى البداية كان بمناسبة ذِكْر ما له علاقة بشعيب عليه السلام حين ورد موسى ماء مدين ، ولكن العجيب أنه عند ذِكْر شعيب لم يذكر قصة موسى معه ، وإنما ذكر قصة موسى مع فرعون.

وقد علمنا أن موسى عليه السلام لم يكن آتياً إلى فرعون إلا لمهمة واحدة ، هى أن يرسل معه بنى إسرائيل [2] ولا يعذبهم.

وأما ما يتأتى بعد ذلك من الإيمان بالله فقد جاء كأمر تبعىٍّ ، لأن

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) ﴾ [هود].

(٢) وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) ﴾ [الأعراف].

رسالة موسى عليه السلام لم تكن إلا لبنى إسرائيل ؛ ولذلك جاء هنا بالكتاب ليبلغه إلى بنى إسرائيل منهجاً ، أما فى الموضع الأول فقد ذكر سبحانه الآيات التى أرسل بها موسى إلى فرعون.

ونحن نعلم أن سورة هود عرضت لمواكب الرسل: نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، وإبراهيم - عليهم جميعاً السلام - وجاء الحديث فيها عن موسى عليه السلام مرتين: مرة فى علاقته بفرعون ، ومرة فى علاقته ببنى إسرائيل.

وفى كل لقطة من اللقطات مهمة أساسية من مهمات المنهج الإلهى للناس عموماً ، من أول آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ؛ إلا أنه عند ذكر كل رسول يأتى باللقطة التى تعالج داءً موقوتاً عند القوم.

فالقَدْر المشترك فى دعوات كل الرسل هو قوله سبحانه:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم [1] مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٥٩)﴾ [الأعراف]

ثم يختلف الأمر بعد ذلك من رسول لآخر ، فمنهم من يأمر قومه ألا يعبدوا الأصنام ؛ ومنهم من يأمر قومه ألا ينقصوا الكيل والميزان.

وهكذا نجد فى كل لقطة مع كل رسول علاج داء من داءات [2] تلك

---

(١) ما - هنا - نافية بمعنى: ليس. أى: ليس لكم إله غيره.

(٢) الداء: المرض ظاهراً أو باطناً، والعيب ظاهراً أو باطناً. ويقال: فلان ميت الداء: لا يحقد على من يسيء إليه. وداء الأسد: الحمى. وداء الظبى: الصحة والنشاط. وداء الملوك: النقرس. وداء الكرم: الدين والفقر. وداء الضرائر: الشر الدائم. وداء البطن: الفتنة العمياء. وداء الذئب: الجوع. والجمع: أدواء. [المعجم الوسيط مادة (د و أ)] ويجوز التأنيث فيقال: داءة وجمعها: داءات، وهى الأمراض سواء أكانت مادية أم معنوية.

الأمة ، أما الإسلام فقد جاء ليعالج داءات البشرية كلها؛ لذلك جمعت كل القيم الفاضلة فى القرآن كمنهج للبشرية[١].

لذلك فالحق سبحانه لا يقص علينا القصص القرآنى للتسلية ، أو لقتل الوقت ، أو لتعلم التاريخ ؛ ولكن لنلتقط العبرة من رسالة كل رسول إلى أمته التى بعث إليها ليعالج داءها.

وبما أن أمة محمد ﷺ ستكون آخر عهد لالتقاء البشر بالبشر[٢]، وستكون فيها كل أجواء وداءات الدنيا ، لذلك فعليهم التقاط تلك العبر ؛ لأن رسالتهم تستوعب الزمان كله ، والمكان كله.

والحق سبحانه هنا يقول:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ .. (١١٠) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أنه إذا تقدم أمران على ضمير الغيبة ؛ فيصح أن يعود الضمير إلى كل أمر منهما.

وقوله سبحانه: ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ..(١١٠) ﴾ يصح أن يكون الاختلاف فى أمر موسى ، ويصح أن يكون الاختلاف فى أمر الكتاب ، والخلاف فى واحد منهما يؤدى إلى الخلاف فى الآخر ؛ لأنه لا انفصال بين موسى عليه السلام ، والكتاب الذى أنزله الله عليه.

وهكذا فالأمران يلتقيان: أمر الرسالة فى الكتاب ، وأمر الرسول فى الاصطفاء ؛ ولذلك لم يجعلهما الحق سبحانه أمرين ، بل هما أمر

(١) يقول الحق : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] إذن : جُمعت قيم الأديان فى الكتاب الخاتم المنزل على الرسول الخاتم لتوحيد الإنسانية على الحق والخير والسلام.

(٢) مقصود فضيلة الشيخ أن أمة محمد ﷺ هى آخر الأمم منذ بعثة محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ورسولها محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والرسل.

واحد ؛ لأن الرسول لا ينفصل عن منهجه.

وقوله الحق: ﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠) ﴾ أمر يتعلق بفعل الحق سبحانه ، ولله[1] ذات ، ولله صفات ، ولله أفعال.

وهو سبحانه مُنزَّه فى ذاته عن أى تشبيه ، ولله صفات ، وهى ليست ككل الصفات ، فالحق سبحانه موجود ، وأنت موجود ، لكن وجوده قديم أزلىٌّ لا ينعدم ، وأنت موجود طارىء ينعدم.

ونحن نأخذ كل ما يتعلق بالله سبحانه فى إطار:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى]

فإذا تكلم الحق سبحانه عن الفعل فخذ كل فعلٍ صدر عنه بقوته سبحانه غير النهائية.

وقوله سبحانه هنا:

﴿ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..(١١٠) ﴾ [هود]

نفهم منه أن هذا الفعل قد استلزم صفات متكاملة ، علماً وحكماً ، وقدرةً ، وعفواً ، وجبروتاً ، وقهراً ، فهناك أشياء كثيرة تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان.

وقد يسأل سائل: وما دام موسى ﷺ قد أوتى الكتاب ، واختُلف فيه ، فلماذا لم يأخذ الحق سبحانه قوم موسى كما أخذ قوم نوح، أو قوم عاد ، أو قوم ثمود ، أو بقية الأقوام الذين أخذهم الله بالعذاب ؟

---

(١) توحيد الذات هى لغة القلب بالوحدانية والتفريد والتجريد لله، يقول الحق: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [الانعام] وللذات عطاءات كلما ذكرته مُوحداً فأنت في رقي دائم وتستحق من الله عطاء الصفات – فتستحق الرحمة من الرحيم، والرزق من الرزاق، والجبر من الجبار، فمن أحب الذات وهبتْ له عطاءات الصفات، وفى أسمائه الحسنى الزاد المطلوب – [من مفهوم الخواطر].